مَحَاوِرُ التربِيةِ في شِعْرِ الشافِعي

د. السعدى الغول السعدى

د. طه على خليفة

كلية التربية بالغردقة

جامعة حنوب الوادى – مصر

المقدمة

كان الإمام الشافعي رحمه الله علما من أعلام الأمة الإسلامية ، وفذا من أفذاذها الذين لا يجود بهم الزمان إلا قليلا ، وقد جبله الله على النباهة والاستعداد الفطري لتلقى العلوم والنبوغ فيها ، كما أتحفه ملكات واستعدادات جعلته يعب من شتى العلوم عبا دون كلل أو ملل ، وينهض بالكثير من أعبائها دون جهد أو مشقة ، ويبرز فيها بروزا تنحني له الجباه اعترافها بفضله وعلمه ، فإضافة إلى تبحره فى الفقه والحديث ، نبغ فى علوم اللغة العربية من شعر ونحو وعروض ، ثم كان بحق من المؤسسين للنظريات التربوية الحديثة ،كما سنرى .

وقد ولد الشافعى رضى الله عنه سنة مئة وخمسين من الهجرة فى السنة التى مات فيها أبو حنيفة رضى الله عنه ، وكانت ولادته بغزة بفلسطين ، وحمل من غزة إلى مكة وهو ابن سنتين ، وبها نشأ وقرأ القرآن الكريم .....وقدم مدينة بغداد سنة خمس وتسعين ومئة فأقام بها شهرا ثم رحل إلى مصر ، ولم يزل بها إلى أن توفى يوم الجمعة سنة أربع ومئتين ودفن بعد العصر قرب المقطم[1] .

وكان رحمه الله شاعرا فصيحا بليغا ،وتربويا صاحب آراء متمكنة ، يدين لها علماء النفس والتربية ، وقد قال عنه الأصمعي العلامة :" صححت أشعار هذيل على فتى من قريش يقال له محمد بن إدريس الشافعى ، وعن مصعب الزبيرى قال : كان أبى والشافعى يتناشدان الشعر ، فأتى الشافعى على شعر هذيل حفظا.... وقال المبرد : كان الشافعى من أشعر الناس وآدبهم " [2] ، وإلى هذا يشير د.عمر فروخ ، إذ يقول :" الشافعى شاعر مقل قريب المعانى سهل الأسلوب" [3] ، نحن إذن أمام شاعر فصيح بليغ ، من أشعر الناس وآدابهم ، بشهادة عماليق اللغة وآدابها .

ويتضح منهج الشافعى فى الشعر من خلال رأيه فيه ، إذ ورد فى كتابه (الأم) فى حكم جواز شهادة الشعراء قوله :" الشعر كلام حسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام ، غير أنه كلام باق سائر ، فذلك فضله على الكلام ، فمن كان من الشعراء لا يعرف بتنقص المسلمين وأذاهم والإكثار من ذلك ، ولا بأن يمدح فيكثر الكذب ، لم ترد شهادته ، ومن أكثر الوقيعة فى الناس على الغضب أو الحرمان حتى يكون ذلك كثيرا ظاهرا مستعلنا ، وإذا رضى مدح الناس بما ليس فيهم ، حتى يكون ذلك كثيرا ظاهرا مستعلنا ،كذبا محضا ردت شهادته بالوجهين ، وبأحدهما لو انفرد به ، وإن كان إنما يمدح فيصدق ويحسن الصدق ، أو يفرط فيه بالأمر الذى

[1] - ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : د. إحسان عباس ، ط/صادر – بيروت ، ج4 ، ص 165.
[2] - ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، ط/ دار المستشرق – بيروت ، ج 17 ، ص 299- 300.
[3] - د. عمر فروخ : تاريخ الأدب العربى ، ط3/ دار العلم للملايين – بيروت ، سنة 1980، ج2 ، ص 172.

لا يمحض أن يكون كذبا لم ترد شهادته ...."[4] ، هو إذن لا ينظم شعرا إلا إذا كان مطابقا لمعنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : الشعر كلام ، حسنه حسن ، وقبيحه قبيح ، ولا ينظم شعرا إلا إذا كان يحمل مضامين التربية السليمة ، لذلك كان مقلا فى شعره ، لأنه يتحرى فيه الصدق ، وحسن القول ، والرأى التربوى السليم ، وقد أبان عن سبب هذه القلة أيضا، حيث يقول:

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لبيد[5]

وهو يقصد الشعر الذى يهيم به الشعراء فى كل واد ، ويقولون فيه ما لا يفعلون ، وعلى الرغم من ذلك فقد تميزت هذه القلة بالكلمة الشعرية القوية المعبرة عن القيم السماوية ، والقواعد التربوية الأصيلة ، التى من المفترض أن يتبعها التربويون جميعا ، كما تتزود منه بالحكمة والمثل ، وقبل كل ذلك تشعر فيه باليقين الحقيقى ،الذى يبعث على الطمأنينة ، والذى تسمو به النفس إلى آدميتها وفطرتها النقية .

وهذا البحث محاولة جادة لتسليط الضوء على الجانب الأدبى عند الشافعى ، مقتصرا على شعره التربوى فقط ، ولا يعنى بطبيعة الحال بالجانب الدينى الشرعى أو التاريخى أو غيره من الجوانب الأخرى ، فالدراسة تختص بالمحاور التربوية فى شعر الشافعى ،والتى يزداد أثرها فى النفس إذا حزبك أمر ما فى حياتك ، وقرأتها .

وبهذه المحاور الشعرية التربوية يسهم الشافعي فى بناء الفرد فى المجتمع الإسلامي ، محاولا أن يغرس فيه ما يقومه ويرضيه ، ويجعل منه شخصا متزنا نفسيا فيعود بذلك أثره على مجتمعه الذى يعيش فيه .

وتهدف هذه الدراسة أيضا إلى إحياء شعر الإمام الذى يدل على فحولة صاحبه وتمكنه من قول الشعر وصياغته ، فالكثير يرى أنه صاحب اليد الطولى فى الفقه والسنة ، ولا يعرف أنه أيضا فحل من فحول علوم اللغة العربية كلها ، كما ذكرنا آنفا .

وبطبيعة شخصية الرجل الفذة، وشهرته التى طبقت الآفاق ، وتعدد جوانب الفكر لديه ، فقد سبقت دراسات عديدة تناولته رحمه الله ، سواء على مستوى الجانب الشخصى الخلقى ، أم على مستوى الجانب العلمى الفقهى ، لكن قليلة تلك الدراسات التى توجهت إلى دراسة أدب الشافعى – فى حد علمى – ، وكأن قوة فقهه قد أنست الدارسين جودة شعره .

---

[4] - الشافعى : الأم ، تصحيح محمد زهرى النجار ، ط/ دار المعرفة والطباعة والنشر – بيروت ، ج6 ، ص 207.

[5] - الشافعى : ديوان الشافعى ، تحقيق : محمد عفيف الزعبى ،ط/ دار الجيل – بيروت ، ص 39 .

ومن هذه الدراسات على سبيل المثال لا الحصر ، والتى تناولت الشافعى كفقيه أو عالم تربوي ، أو علم من أعلام الأمة ، أو غير ذلك ، بيد أنها ألمحت فى طياتها لأدبه ، وأحيانا خصصت جانبا منها لذلك :

1- الإمام الشافعى : محمد أبو زهرة ، ط/ دار الفكر العربى – القاهرة .

2- الإمام محمد بن إدريس الشافعى : د. مصطفى الشكعة ،ط1/ دار الكتاب المصري – القاهرة 1984.

3- الإمام الشافعى ناصر السنة وواضع الأصول : عبد الحليم الجندي ،ط/دار المعارف – القاهرة .

4- الإمام الشافعى : عبدالغنى الدقر، ط/ دمشق 1987.

وفى النهاية لا يعنى ذلك أننا وفيا الدراسة حقها ، بل حسبنا أننا حاولنا ، وكفى بذلك جهدا ، وقد قُسم البحث إلى عدة محاور ، هى كالتالى :

1- الرضا بالقضاء والقدر .

2- حتمية الرزق .

3- مداواة أمراض القلوب .

4- طبيعة الدهر والاستعداد لصروفه .

ثم خاتمة البحث متضمنة النتائج .

وقد سبق ذلك مقدمة ،لينتهي البحث بثبت بالمصادر والمراجع ، ثم الفهرست .

وعلى الله التوفيق والسداد .....

المحور التربوى الأول :الرضا بالقضاء والقدر

مسألة الرضا بالقضاء والقدر من المسائل التى شغلت قدرا ليس يسيرا من شعر الشافعي ، فالمتصفح لديوانه يلمس ذلك تماما ، ويجد الشافعي فى هذا المحور مصلحا اجتماعيا عبقريا ، يستولى شعره على القلوب ؛ لأنه يخرج من معين فاعل لا قائل ، كما جاء شعره فى هذا الجانب

متضمنا أفكارا ونظريات وتجارب علمية حياتية وافية ، ويدل دلالة كبيرة على تأثر شديد وفهم عميق للنص القرآني ، والأثر النبوي ، فهو دائما يدعو إلى أنه لا بد من التسليم لمشيئة الله ، مع سكون القلب وطمأنينته ورضاه بقضاء الله سبحانه وتعالى ؛ ليحيا المرء حياة هادئة ، وذلك جزء لا يتجزأ من تمام الإيمان ، وصحة العقيدة ، وفيه نرى أيضا شاعرنا الشافعي يحلق بحس مرهف وشاعرية فذة ، يغوص بها فى أعماق اللغة ليخرج دررا وفرائد ناصعة ، يصوغها لؤلؤا لامعا براقا ، يشخص فيها الداء ، ويصف لنا فيها العلاج الناجع ، والدواء الشافي .

وإذا كان الشاعر لا بد أن يكون له " كيان مستقل ، ونظرة متميزة للحياة والناس ووجدان يقظ يرصد المجتمع والطبيعة والنفس الإنسانية " [6]، فإن شاعرنا كان خير من يمثل ذلك ، فهو يقظ ، رصد فى شعره مجتمعه ، والأهم طبيعة النفس الإنسانية بجانبيها الروحى والمادى .

على أن الغالب على شعر شاعرنا – الذى قامت عليه الدراسة – كثرة المقطوعات الصغيرة ، وهى مبثوثة فى ديوانه ، فأحيانا يصل الأمر إلى نظم البيت أو البيتين ، وغالبا ما يميل فيهما إلى التأمل والتجريد ، فمادة مثل هذه الأبيات ، – ومعظم شعر الإمام – فى المقام الأول هى مادة فكرية تأملية ، أما تجلياتها الفنية فتكمن فى ما فى شعره من مقابلات ومفارقات ، وصور شعرية جزئية وإن كانت قليلة ، فمثل هذا اللون من الشعر التأملي يميل إلى التقرير ، أكثر من ميله إلى الصور الخيالية (7) ، وسيتضح كل ذلك جليا .

وأول ما نلتقى به ففى مقطوعة رائعة هى عين التسليم لله ولقضائه سبحانه ، وقد بدأها بفعل الأمر " دع" ، حاملا فى طياته النصح والإرشاد ، والدعوة إلى الرضا والاستسلام لأمر الله ، وقد تعرض فيها لكل ما يمكن أن يصيب الإنسان من هم وغم ، مقدما العلاج بعد كل داء ، وهى مقطوعة مشهورة ؛ لأنها صارت مضربا للأمثال ، وينبوعا ثرا غنيا بالأعلاق النفيسة ، تتردد على كل لسان ، وفى كل زمان ومكان ، وفيها يقول الشاعر :

دع الأيام تفعل ما تشاء وطب نفسا إذا حكم القضاء
ولا تجزع لحادثة الليالي فما لحوادث الدنيا بقاء
وكن رجلا على الأهوال جلدا وشيمتك السماحة والوفاء
وإن كثرت عيوبك فى البرايا وسرك أن يكون لها غطاء
تستر بالسخاء فكل عيب يغطيه كما قيل السخاء
ولا تر للأعادي قط ذلا فإن شماتة الأعدا بلاء

---

[6] - د . عبد القادر القط : الاتجاه الوجداني فى الشعر العربي المعاصر ، ط/ مكتبة الشباب –القاهرة ، سنة 1978، ص 27 .
[7] - أحمد تمام : الشافعى ملامح وآثار ، ط/ دار الفكر – عمان ، ص 127ومابعدها ، (بتصرف) .

ولا ترج السماحة من بخيل فما فى النار للظمآن ماء
ورزقك ليس ينقصه التأني وليس يزيد فى الرزق العناء
إذا ما كنت ذا قلب قنوع فأنت ومالك الدنيا سواء
ومن نزلت بساحته المنايا فلا أرض تقيه ولا سماء
وأرض الله واسعة ولكن إذا نزل القضا ضاق الفضاء
دع الأيام تغدر كل حين فما يغنى عن الموت الدواء[8]

يقين راسخ ، واطمئنان نفسي عجيب ، وسكينة أعجب ، تعالج كل الوساوس والأمراض ، وتردع النفس الأمارة بالسوء ، فليس أمام المرء إلا أن يدع الأيام تفعل ما تشاء ، ويطيب نفسا ، ولا يجزع لفعلها ، فأمر الله نافذ وقدره حتمي ، فليس للمرء أن يجزع ، مهما حدث من الأيام ، ولابد من الانطلاق نحو الصبر والجلد ، والكرم والسماحة والقناعة والوفاء وغير ذلك من الصفات الحسنة ، بعيدا عن التثبيط والتقاعس والإحباط ، فذلك يمنح المرء يقينا قويا ، ومحركا فى الحياة صلبا ، فالقلب بطبيعته " لا يخلو قط من الفكر إما فى واجب آخرته ومصالحها وإما فى مصالح دنياه ومعاشه ، وإما فى الوساوس والأماني الباطلة " [9] ، فإن ركنا إلى هذه الوساوس والهواجس ، تحطمت أهواؤنا ورغباتنا على صخرة الحياة ، وصرنا مطية لليأس والقنوط ، فأضر ذلك بنا وبمجتمعاتنا التى لا تحتمل اليائسين والقانطين ، وفيها أيضا دعوة لعدم الندم على شئ فات ، وانقضى أمره ، إذ لا مرد له ، وليس هناك ما يحول دون نفاذه ، ومن ذا الذي يحول دون أمر يريده الله سبحانه .

وقد صاغ الشاعر كل ذلك بألفاظ شعرية موجزة سهلة ، تتناسب مع غرض القصيدة ، التي لا تحتاج من القارئ أن يصرف ذهنه عن مضمونها ؛ لفهم ما غمض منها .

وكثيرا ما يقدم لنا الشاعر درره الشعرية ، وقد أحاطها اليقين ، ولفها الرضا ، وكستها حنكته وخبرته فى الحياة صدقا وإيمانا ،وذلك نراه فى مقطوعة يشير فيها إلى ما ينجم عن حمل الهموم ، وما يصيب المرء من القلق والتوتر فى ترقب مصائر أمور حسمت ، فذلك قد يودى به إلى التعب النفسي ، أو قد يفضى به إلى الجنون أحيانا إذا اشتد ، فلم ذلك ، وأزمة الأمور كلها بيد الله؟! ، إذن فلابد أن يدرأ المرء عنه ذلك ، حتى تطمئن نفسه ، ويهدأ باله ، وقد جاءت أيضا فى ألفاظ سهلة ، وعبارات تنفذ إلى القلب مباشرة ، كعادة شاعرنا ، يقول :

سهرت أعين ونامت عيون فى أمور تكون أو لا تكون

[8] - الديوان : ص 15-16 .
[9] - ابن القيم : الفوائد ، ط/ مطبعة البيان – دمشق ، سنة 1987 ، ص 311.

فادرأ الهم ما استطعت عن النفـ ـس فحملانك الهموم جنون
إن ربا كفاك بالأمس ما كـا ن سيكفيك فى غد ما يكون([10])

أبيات شعرية تغنى عن عيادة نفسية بكاملها ، فيها دعوة التوكل على الله ، وأن يلقى المرء بأحماله تحت مشيئته سبحانه ، فهو المصرف للأمور ، وهو الذى يكفى عبده المتوكل عليه بصدق كل ما يشغله ويهمه ، وفيها يقين راسخ رسوخ الجبال ، وراحة للنفس تصبح معها آمنة مطمئنة ، لا يعتريها الخور أو الضعف ، وشعور ببرد التسليم والرضا بقضاء الله وقدره ، وأبيات مفعمة بالصدق لا تخرج إلا من نفس ذاقت حلاوة الإيمان ، وخبرت الدنيا كنفس شاعرنا .

ومن الأبيات اليقينية الرائعة ، قول شاعرنا :

ولرب نازلة يضيق لها الفتى ذرعا وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج([11])

ما أظن أحدا حلت به مصيبة ، أو حزبه أمر لم يستشهد بهذين البيتين ، أو استشهد له بهما ؛ لتقوية عزيمته ، لما فيهما من دعوة إلى الصبر والتحمل ، والرضا بقضاء الله وقدره ، وإقرار حقيقة ، هى أن بعد الضيق فرجا وبعد الهم مخرجا ، وقد تعهد الله بذلك فى كتابه ، فالفرج لا يأتى إلا بعد استحكام الأمر واستغلاقه ، وبعد أن ييأس المرء ويقنط ، ويفقد المخرج أو الفرج ، ثم يهبط فرج الله فتثلج به الصدور ، وتهدأ به النفوس ، وفى الأبيات أيضا خيال معبر إذ يخيل إلينا أن النازلة شئ ثقيل قد أطبق بحلقاته على المرء ، وجثم على صدره ، حتى لا فكاك منه ،وإذ بهذا الشئ تنفرط حلقاته ، ويتنفس المرء الصعداء ، بعد أن فقد الأمل والرجاء فى الفكاك منه .

وعلى غير عادة شاعرنا محمد بن إدريس ، فى الإكثار من المقطوعات الشعرية – كما ذكرنا آنفا – ، تقابلنا هذه القصيدة التى تربو على العشرين بيتا فى ديوانه ، وفيها يقدم مجموعة من الأدواء النافعة والعلاجات الناجعة ، لعلاج الهموم وتفريج الخطوب والكروب ،وقد افتتحها بما يستبشر به المرء ، ويزيح عنه الهم ، ويفتح له بابا للأمل على مصراعيه ، ومنها قوله :

سيُفتَحُ بابٌ إذا سُدَّ باب نَعَم وتَهون الأُمورُ الصِعاب
ويتَّسعُ الحال مِن بعد ما تضيق المذاهِبُ فيها الرحاب

[10] - الديوان : ص 85 .
[11] - الديوان : ص 32 .

مع الهم يسرانِ هوِّن عليك فلا الهمُّ يجدي ولا الاكتئاب
فكم ضقتُ ذرعا بما هِبْتَهُ فلم يرَ مِن ذاك قدرٌ يُهاب([12])

فعلى المرء أن يدرك رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده ، ويطمئن إلى ذلك ، بل ويتيقن أن الله لا يغلق بابا فى وجه امرئ إلا ليفتح له بابا آخر ، ييسر له فيه أمره ، ويهون عليه مصابه ، ويفرج له كربه ، ونرى الحس القرآني واضحا فى هذه الأبيات ، فالله سبحانه قال :" إن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا" ، فجعل اليسرين يقابلا عسرا واحدا ، فلا يغلب عسر يسرين أبدا ، لكن الأمر بحاجة إلى ثقة فى الله ووعده ، فما فائدة الهم والغم والاكتئاب إذن ؟، وكثيرا أيها الإنسان ما حزبك أمر ما وضقت ذرعا به ، ثم رأيت أن الأمر أهون من ذلك .

ثم يواصل الشاعر قائلا :

ورزقٌ أَتاك ولم تَأْتِـهِ ولا أَرَّقَ العَيْنَ مِنه الطَّلاب
وناءٍ عن الأهل ذي غُربة أُتِيح له بعد يأسٍ إياب
وناجٍ من البحر مِن بعدما علاه مِن الموج طام عباب
إذا احْتَجَبَ الناس عن سائلٍ فَما دون سائل ربي حِجاب
يعودُ بفضلٍ على مَن رجاه وراجيه في كل حين يُجاب([13])

وقد كفل الله لك رزقك ، وأحيانا قد يأتي إليك ، فما عليك سوى السعى ليلتقى رزقك بك فتناله ، ثم يدعو فى هذه المقطوعة إلى سعة الصدر وعدم اليأس ، فكم من مغترب نأي عن أهله ، وحيل بينه وبينهم ، فلما يأس ويأسوا من إيابه ، يسر الله له أمره ، وأتاح له إيابا سهلا إليهم ، وكم من مبحر غلبه الموج القوى على أمره وتيقن من هلكته غرقا فى عباب اليم ، فأنجاه الله سبحانه ، فكيف للمرء أن ينسى سؤال ربه الذى لا يحتجب عن سائله أبدا كالبشر ، ولا يخيب ظن راجيه أبدا ، ففضله يعود به سبحانه للذي يرجوه ويدعوه .

ثم يواصل شاعرنا قائلا :

فلا تأسَ يوما على فائتٍ وعِنْدَك منه رِضا واحتساب
فلا بُدَّ مِن كَوْنِ ما خُطَّ في كِتابِك تُحبَى بهِ أو تُصاب
فمَن حائلٌ دون مافي الكتاب ومَن مُرْسِلٌ ما أَباه الكتاب
إذا لَم تَكُنْ تارِكاً زينةً إذا المِرْءُ جاءَ بها يُستراب
تَقَع في مواقِعَ تَرْدى بها وتَهوي إليك السِّهامُ الصِّياب([14])

[12] - الديوان : ص 29 .
[13] - الديوان : ص 30 .
[14] - الديوان : ص 30 .

يقال : إن التفكير فى المصيبة ، مصيبة أخرى ، وقد فطن شاعرنا رحمه الله إلى ذلك ، فكان متفائلا جدا ، لأنه يعلم " إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون "، فمعظم الأمراض النفسية مكمن علاجها فى عدم اليأس ، والرضا بقضاء الله والثقة به ، وعقد الأمل عليه سبحانه ، فحينها يتبدل اليأس أملا والهم فرجا ، إلى كل ذلك فطن شاعرنا ، فدعا إلى عدم اليأس والقنوط وأن نرضى ونحتسب ، فقد رفعت الأقلام وجفت الصحف ، ولا بد من كون ما خطه الله فى كتابه وما قدره لعباده ، سواء رضى به المرء أم لم يرض ، فلا حائل لما قدره الله ، ولا فار منه ، ولا حيلة للمرء غير الرضى ، فستصيبه سهام القدر لا محالة .

وفى مقطوعة أخرى رائعة ، يسوقها لنا الشاعر، يحث فيها على التسليم بقضاء الله ، حتى تبرأ نفوسنا من قلقها وتوترها لمن يوقن بها ، فلا يمكن لأحد أن يدفع مقدور الله سبحانه وتعالى بيده ، حتى الطبيب بطبه ودوائه ووصفاته لا يملك لقدر الله دفعا ولا إرجاء ، فنرى الطبيب يبرئ أناسا كثيرة من داء يصيبها ، ويموت هو بنفس الداء ، أما كان يستطيع له علاجا ، وهو الذى يداوى الناس منه ؟ ، لكنه أمر الله النافذ ، وقدره المحتوم ، فالكل سيهلك ويموت ، الطبيب والمريض ، وصانع الدواء وبائعه وشاريه ، يقول فى ذلك :

إن الطبيب بِطبه وَدَوائـِه لا يستطيع دفاَع مقدُور القضى
ما للطبيب يموت بالداء الذي قد كان يبرىء مثله فيما مضى
هلك المُدَاوِي والمُدَاوَى والذي جَلَبَ الدّواءَ وَباعهُ وَمنِ اشترَى(15)

ويوضح الشاعر منهجه الذى ينهجه ، وطريقه الذى خطه لنفسه فى الرضا بقضاء الله والتسليم به ، لينهج القلقون والقانطون نهجه ، فهو الله حسبه فى كل شئ ، بل ويزداد يقينا من رضا الله عنه ووده له حينما يتعرض له الدهر بخطوبه ، وينكبه بنكباته رحمه الله ، وهذا عين الرضا ، يقول :

أنت حسبي وفيك للقلب حسب وبحسبي إن صح لي فيك حسب
لا أبالي متى ودادك لي صح من الدهر ما تعرض لي خطب(16)

15 - الديوان : ص 91 .
16 - الديوان : ص 25 .

وفى النهاية يضع الشاعر يده على لب القضية ، وسبب الإحن والمصائب ، حينما يبين لنا خطر الدنيا ، وأن معظم المصائب والشرور فى تتبع ملذاتها ، واعتناق سرابها ، وهى فانية لا بقاء لها ولا قيمة أو فائدة منها ، ولا تستحق منا عناء أو هرولة خلفها ، وقد جهدنا أنفسنا ، وتعبنا أبداننا ، فى الحصول على سراب ، فلنترك كل ذلك ولا نكترث به ، ونتفرغ لما يصل بنا إلى الفردوس الأعلى ، ويبعدنا عن نار جهنم والعياذ بالله ، وفى هذا علاج لكل الأزمات.

يقول :

يا من يعانق دنيا لا بقاء لها يمسي ويصبح في دنياه سافرا

هلا تركت لذي الدنيا معانقة حتى تعانق في الفردوس أبكارا

إن كنت تبغي جنان الخلد تسكنها فينبغي لك أن لا تأمن النارا([17])

وهكذا جاء أسلوب الشافعي فى أبياته أسلوب سهل لا صعوبة فيه ولا تعقيد ، يتناسب مع الغرض من شعره ، ولا تعنى هذه السهولة ضعفه ، بل العكس لقد كان الشاعر متمكنا من اللغة ، قابضا على ناصيتها ، يختار منها ما يلائم شعره دون تكلف ، كما كانت ألفاظه ليست مجرد حشد ، بل فى أحايين كثيرة تثير لدى المتلقي معان تنفذ إلى قلبه مباشرة ، إذ غلبت عليها عاطفته الصادقة دون إسراف أو غلو ، فهو صاحب ذات صادقة ونفس صريحة حكيمة ، مما طبع أبياته بطابع الصدق واليقين الراسخ .

المحور التربوى الثاني : حتمية الرزق :

يعد هذا المحور من المحاور البارزة فى شعر الإمام الشافعي ، لذا نجد له أثرا واضحا فى الديوان ، فالرزق دائما مما يجلب للإنسان المتاعب والخوف والرعب والقلق والاضطراب فى حياته ، فما أقسى هموم الإنسان وما أشد تفكيره فى أمر معاشه ، والحصول على رزقه ، ويا ويل الإنسان إذا بلى بالطمع، وأطلق العنان لشهوته فى جمع المال وصار عبدا للدرهم والدينار ، فستنقلب حياته جحيما ، ولن يهدأ له بال حتى يفجؤه الموت ، ولا منقذ له إلا أن يعرف الغاية من جمع المال ، وأن مما يحرم منه نفسه فى الدنيا ، ويحاسب عليه فى الآخرة ، ويتوارثه الأهل بعد موته ، ويوقن أن كل شئ بقضاء الله وقدره فيسلم ويهدأ ، كل ذلك تضمنه شعر الشافعي ،

[17] - الديوان : ص 45.

الذى حاول بكل ثقة فى الله ويقين راسخ معالجة هذا الأمر ، فى لغة تقريرية واضحة ، وأسلوب سهل كما عودنا على ذلك .

ويتطرق الشاعر فى مناقشته لقضية الرزق إلى عدة أمور ، منها أنها مسألة حتمية مكفولة من الله سبحانه وتعالى ، لا دخل للإنسان وعقله فيها ، فالرزق لا يأتي مطلقا بالتفكير والتدبير ، فلو كان كذلك لما وجدنا فى دنيانا عاقلا لم يظفر من الدنيا بشئ ، أو ما وجدنا أحمقا أو مجنونا قد بسط الله له فى الرزق ، وهو فاقد عقله ، وفى ذلك يقول :

لو كنت بالعقل تعطى ما تريد إذن لما ظفرت من الدنيا بمرزوق
رزقت مالا على جهل فعشت به فلست أول مجنون ومرزوق ([18])

ويعلق هو نفسه على هذه المسألة ، قائلا: " فهذا عام لا خاص فيه ، فكل شئ من سماء وأرض وذي روح وشجر وغير ذلك ، فالله خلقه ، وكل دابة فعلى الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها " ([19]) ، فقد تجد إنسانا جاهلا أو أبلها ينال عيشه ورزقه دون كد وتعب ، وتجد عالما ذكيا ، ضيق الله عليه رزقه ، وقد أتعب فيه بدنه ، ولم يرح جسده فى الحصول عليه ، لأن الأرزاق لا تأتى بالحجة وإعمال العقل ، فو كان الأمر كذلك ، لهلك كل من لا حجة له ، ولا عقل .

ولا زال شاعرنا يتحدث بالعقل والمنطق ، مؤكدا على حتمية مسألة الرزق حتى يريح الإنسان نفسه ولا يجهد بدنه فوق طاقته ، فهو دائم النداء دون كلل أو ملل ليؤكد أن الغنى والرزق الوفير لا يجرى للمرء أبدا بالحيلة والفكرة ، ويخاطبه قائلا : أعلم أن الرزق أمر محسوم ومقدر ، فلو سمعت عن امرئ صاحب جد – حظ – قد بلغ من جده أنه لو أمسك فى يده عودا من الخشب فأثمر هذا العود دون أى مقوم من مقومات الحياة ، فلا تكذب ذلك ، فلا حيلة له فى رزقه ، وإذا سمعت عن امرئ فقير محروم ، أتى له بماء ليروى ظمأه – الذى يملأ الكون – فغاض منه فلا تكذب أيضا ، لأن لا رزق له فيه ، وهى أمثلة يدرك الشاعر أنها مستحيلة التحقيق ، لكنه ساقها ليبين للناس حتمية الرزق .

ويواصل الحديث عن تلك الحتمية المؤكدة ، وأنها ليست بالعقل ، ضاربا بنفسه مثلا ، وقد أدرك مكانته ، والناس كذلك ، فلو كان كذلك – الرزق بالعقل والتدبير – لوجدنا الإمام نفسه من أغنى خلق الله سبحانه وتعالى ، لما وهبه الله من عقل ذكى ، وحجة قوية ، لكنه يرى –

[18] - الديوان : ص 66-67 .
[19] - الشافعى : الرسالة ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، ط/ القاهرة ، ص 54 .

رحمه الله – أن الله غالبا لا يجمع لعبده بين رزق الذكاء والفطنة وقوة الحجة التى وهبها للشاعر ، وبين كثرة المال ، فهما ضدان مفترقان لا يجتمعان ، ودليله على قضاء الله وقدره فى ذلك ، أن كثيرا ما نرى بؤس عيش اللبيب الفطن ، وطيب عيش الأحمق الذى لا عقل له ، ثم على الذى يسر الله رزقه ووسعه عليه أن يشكر ربه ويحمده ، لأنه كفاه بغناه أمورا صعبة كثيرة ، فالغنى يقرب كل أمر بعيد المنال ، ويفتح أمام العبد كل باب موصد ، فكل ذلك لابد أن يقرن بالحمد والشكر .

يقول :

فإذا سمعت بأن مجدودا حوى عودا فأثمر في يديه فصدق
وإذا سمعت بأن محروما أتى ماء ليشربه فغاض فحقق
لو كان بالحِيَل الغنى لوجدتني بنجوم أقطار السماء تعلّقي
لكنَّ من رُزِق الحِجَى حرم الغِنَى ضدان مفترقان أي تفرقِ
ومن الدليل على القضاء وحكمه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمقِ
إن الذي رزق اليسار فلم ينل أجرا ولا حمدا لغير موفق
والجد يدني كل أمر شاسع والجد يفتح كل باب مغلق([20])

ومعروف أن من أكثر الأمور هولا التى تقابل المرء فى حياته ، شبح الرزق – كما ذكرنا آنفا –على الرغم من أن الله سبحانه وتعالى قد كفل ذلك لعباده ، لذا يجب على الإنسان أن يخضع لله ، ويسلم له أمره ، ويطرد عنه الهموم والوساوس ، وتأثرا بهدى القرآن الكريم والحديث الشريف ، يقول الشاعر وبكل رضى وتسليم ويقين ،– وبعد أن أكثر من الحديث على حتمية الرزق ، ومؤكدا أنها أمر مكفول – ، أنه إذا أصبح فى يومه وقد امتلك قوت هذا اليوم ، فقد طرد عنه الهم والغم ، ويحث الشاعر على الزهد والتقشف فى الحياة ، وأن يترك المرء كنز المال حتى لا يحاسب عليه ، ويسلم لله أمره ويتركه له سبحانه يدبره كيف يشاء ، فهو لا يملك إرادة تحقق له ما يريد ويطمح ، ولا لإرادته قيمة أو قدرة أمام إرادة الله العلى القدير .

يقول الشاعر فى ذلك :

إذا أصبحت عندي قوت يومي فخل الهم عنى يا سعيد
ولا تخطر هموم غد ببالى فإن غدا له رزق جديد
أسلم إن أراد الله أمرا فاترك ما أريد لما يريد
وما لإرادتي وجه إذا ما أراد الله لي ما لا أريد([21])

[20] - الديوان : ص 65 .
[21] - الديوان : ص 39- 40 .

ولا يفكر مطلقا فى رزق غد ولا يخطر بباله ، لأن من كفل له رزق اليوم سيكفل له رزق الغد ، ومن كان لا يعلم هل سيكون غدا حيا أم لا ؟ لماذا يفكر فى رزق الغد ، ويحمل الهم ؟ ، يقول :

من كان لم يؤت علما فى بقاء غد ماذا تفكره فى رزق بعد غد ([22])

ثم على المرء أن يصبر ولا يتعجل أمر رزقه ولا يشكو إن ضاق عليه ، وهذا خطأ يقع فيه معظم الناس ، فيضطرهم ذلك إلى إغضاب الله سبحانه وتعالى ، وقد فطن الشاعر إلى ذلك ، فقال محذرا وراشدا وداعيا إلى الصبر على تأخر الرزق ، معالجا هذا الأمر المقلق ، عسى أن يزيل الله هذا الضيق ، ويبدله بالفرج ، وهذا أمر محسوم من الله ، فما على المرء سوى السعي والعمل واليقين ، وألا يتبرم من قضاء الله .

وفى ذلك يقول شاعرنا :

وإن ضاق رزق اليوم فاصبر إلى غد عسى نكبات الدهر عنك تزول([23])

ولاغرو أن يفيض معين شاعرنا بكل ثقة ويقين ، ولا عجب أن يتعهد لقرائه وتلاميذه ، ويربيهم على المعاني الكريمة ، والأخلاق الرفيعة السامية ، ويغرس فيهم حسن التوكل على الله والثقة المطلقة به ، وذلك استنادا من الشاعر على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " لو أنكم توكلون على الله تعالى حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا " ([24]) ، ضاربا بنفسه مثلا وقد هذبها وأدبها مستحضرا هذه الثقة دائما ، –وقد نقش على خاتمه " كفى بالله ثقة لمحمد بن إدريس" ، وهو القائل :" ربيت بالحجاز وما عندنا قوت ليلة ، وما بتنا جياعا قط " ([25])– ، فى التوكل على الله ، وفى يقينه بأن الله رازقه ، ورزقه لن يفوته ويتركه ليذهب لغيره ، بل سيأتى الله به له ، ولو فى قيعان البحار العميقة ، فلم الحسرة إذن ؟ ! ، وقد قسم الرحمن رزق الخلائق سبحانه ، وهذا لا شك عين اليقين والرضا من الشاعر ، يقول :

توكلت في رزقي على الله خالقي وأيقنت أن الله لا شك رازقي
وما يك من رزقي فليس يفوتني ولو كان في قاع البحار العوامق
سيأتي به الله العظيم بفضله ولو، لم يكن من اللسان بناطق
ففي أي شيء تذهب النفس حسرة وقد قسم الرحمن رزق الخلائق([26])

[22] - الديوان : ص 38 .
[23] - الديوان : ص 70 .
[24] - الألباني : صحيح الجامع الصغير وزياداته ، ط2/ المكتب الإسلامي – بيروت 1986 ، ج2 ، ح . رقم 5254 .
[25] - عبد الغنى الدقر : الإمام الشافعي ، ط3/ دار القلم – دمشق 1987 م ، ص 362-363 .
[26] - الديوان : ص 66 .

وفى النهاية يدعو الشاعر الفطن اللبيب إلى تقوى الله سبحانه وتعالى فهى مفتاح الرزق ، والخير للمرء ، وتغرس فيه اليقين فلا تجعله يخاف الفقر أبدا ما دام الله سبحانه فى السماء ، يرزق عباده حتى الطيور فى أعشاشها ، والحيتان فى بحارها ، وعلى المرء أن يفطن إلى أن الرزق ليس بالقوة العضلية أيضا – كما ذكر سابقا أنه ليس بالعقل والتدبر – فلو كان كذلك " ما أكل العصفور شيئا مع النسر " ، ليختم شاعرنا هذه المقطوعة بالدعوة إلى العزوف عن الدنيا ، فإن أحدا لا يعلم متى سيموت ، فكم من صحيح سليم فوجئ الناس بموته ، وكم من عليل يتوقع الناس رحيله عنهم فلا يرحل ، فالدنيا لا تستحق عناء وتعبا .

يقول :

عليك بتقوى الله إن كنت غافلا يأتيك بالأرزاق من حيث لا تدري
فكيف تخاف الفقر والله رازقا فقد رزق الطير والحوت في البحر
ومن ظن أن الرزق يأتي بقوة ما أكل العصفور مع النسر
نزول عن الدنيا فإنك لا تدري إذا جن ليل هل تعش إلى الفجر
فكم من صحيح مات من غير علة وكم من سقيم عاش حينا من الدهر([27])

وهكذا استطاع شاعرنا ترطيب النفوس ، وإراحة القلوب بالكلمات الرقيقة السهلة ، والمعاني الرفيعة ، والمفاهيم الصحيحة ، وإخراجه من الحالة التى يعيش فيها بإحياء الأمل عنده ، والرجاء له فى الله الرزاق .

المحور التربوى الثالث : مداواة أمراض القلوب

على الرغم من أن الطب البشرى قد بلغ شأوا عظيما فى مداواة أمراض الجسد ، بيد أن أمراض القلوب حيرت جهابذة العلم وفقهاء الطب ، ووقف الكل عاجزا أمام التخلص من هذه العلل ، وتلك الآفات التى تصيب النفس البشرية ، كالحقد والبغض والحسد والكبر...، فهي تؤجج النيران وتثير الإحن والضغائن ، وتودي بصاحبها إلى غياهب الظلمات ، ولكل هذه العلل علماء هم كالأطباء فى شفاء الأمراض الجسدية ، فهم دائما ما يصفون العلاج الناجع ، والدواء النافع ،متكئين فى ذلك على نبع الدين الحنيف .

ويؤكد شاعرنا على أبعاد تلك الأمراض وما ينجم عنها من مصائب ، فهي صعبة العلاج ؛ لأنها تحتاج إلى إيمان عميق ويقين راسخ ، وثقة بالله ، وشاعرنا نفسه رحمه الله كان

[27] - الديوان : ص 45 .

عرضة للحسد ، فقد أوشوا به عند هارون الرشيد ، ولولا أن الله ألقنه حجته ، ووهبه قدرة على الدفاع والحوار ما نجا من براثن الخليفة [28] .

وقد استغل الشاعر هذا الموقف ،وجعله موقفا عاما لا خاصا ، يبين فيه خطورة الحسد ، وأبعاده السيئة ، فرد على حساده بالعقل والمنطق ، قائلا : لقد تمنى رجال حساد موتى ، فإن أمت فذلك سبيل كل الناس بعدى ، وما موت من مات قبلى أوقف الدنيا ، ولا الباقى بعدى سيخلد ، فالكل إلى زوال ، وربما الذي يرجو موتى يسبقني إليه ، فلم كل ذلك الحسد وتلك الضغينة ؟.

يقول :

تمنى رجال أن أموت ، وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

وما موت من قد مات قبلي بضائر ولا عيش من قد عاش بعدي بمخلد

لعل الذي يرجو فنائي ويدّعي به قبل موتي أن يكون هو الردى([29])

وهذا طبع فى ذوى القلوب المريضة من الحسادين والحاقدين جبلوا عليه ، لا يهنئون أبدا ومحسودهم بخير ، فإن أصيب بمصيبة تراهم من أكثر الناس فرحا وسعادة ، وإن رأوه فرحا مستبشرا أصابهم النكد والغم ، يقول :

وإن رأوني بخير ساءهم فرحى وإن رأوني بشر سرهم نكدي ([30])

ولا شك أن داء الحسد أصعب هذه الأمراض ، وأقلها شفاء ، وأعزها علاجا ، " حتى عده بعض العلماء من الكبائر ، وهو ضرر على الحاسد فى الدين والدنيا ، وله آثاره الاجتماعية الخطيرة ، لأنه يشعل نار البغضاء ، ويرفع راية العداوة بين الأقرباء والأصدقاء ، ويمنع المساعدة والمعاونة بين الحاسد والمحسود ، ويأكل قلب الحاسد " [31] ، وهذا ما يعلمه الشاعر يقينا ، لذا قدم بين أيدينا عدة أبيات يعالج فيها هذا الداء المستشري فى الناس ، وما ينجم عنه من أمراض أخرى كالحقد والغل والضغينة ، ولعل من أنجع هذه الوسائل العلاجية إقناع النفس بأن ما عند المحسود هي إرادة الله ، وقسمته بين الخلائق ، وأنها نعمة منه سبحانه لهذا العبد سيحاسبه عليها ، فمن تمنى مثلها لنفسه ، فليدعوا الله أن يرزقه كما رزق غيره .

يقول :

ففي أى شئ تذهب النفس حسرة وقد قسم الرحمن رزق الخلائق ([32])

---

[28] - محمد الزين و أحمد القطان : هارون الرشيد الخليفة المظلوم ، ط/ الكويت ، سنة 1988 ، ص 125 .

[29] - الديوان : ص 36 – 37 .

[30] - الديوان : ص 37 .

[31] - حسن أيوب : السلوك الاجتماعي ، ط/ دار البحوث العلمية – الكويت 1983، ص 91.

[32] - الديوان : ص 66 .

كلام مقنع ، لذا يجب عليك أيها الحاسد أن توطن نفسك على ذلك ، وتتخلص من هذا الداء العضال الذي ركب فيك ، فالحسد وما ينجم عنه من غل وحقد ، إنما هو طوق فى العنق ، كما هو مرارة فى القلب ، يقول :

خلص فؤادك من غل ومن حسد فالغل فى القلب مثل الغل فى العنق ([33])

تشبيه رائع من الشاعر إذ جعل الغل والحسد فى القلب مثل القيد فى عنق الإنسان ، يكبله ويشل حركته ، ويعطل كل مناحى الحياة لديه ، وقد عودنا الشاعر على أمثال هذه التشبيهات ، " التى هى صور جزئية متنوعة " ([34]) ، يحشدها حشدا فى قصائده ، ليعبر من خلال هذا الحشد من الصور التشبيهية عن معنى بعينه يتكرر فى أبيات من القصيدة ، وبهذه الصورة التى رسمها الشاعر استطاع أن يبين بشاعة الحسد والغل ،وضررهما على الحاسد قبل المحسود ، فهما قيد فى عنقه ، قبل أن يكونا فى عنق الآخر .

ومن الأدواء الناجعة أيضا ، فى مداواة مثل هذا المرض ، (القناعة) فهى تورث الرضا والغنى ، وتزيل الهم والحقد ، فتمسك بأذيالها ، وازهد فيما عند الناس ، تصير أغناهم ، وأعزهم ، ثم علام الحسد ؟، وهو الذل والنكد بعينه ، ويورث الهم والغم للمرء ، وما الحسد إلا من الطمع ، والطمع من المهالك ، وعلاج كل ذلك القناعة فى القلب ، يقول :

رأيت القناعة رأس الغنى فصرت بأذيالها ممسك
فلا ذا يراني على بابه ولا ذا يراني به منهمك
فصرت غنيا بلا درهم أمر على الناس شبه الملك([35])

ومن أمراض القلوب أيضا (الطمع) وما يورثه من ذلة وصغار ، وعلاج ذلك أيضا القناعة ، وشاعرنا كان ولازال نموذجا لمن يريد أن يحتذى به فى القضاء على أمراض القلوب ، فقد أمات كل مطامعه ، وأراح نفسه من همها ، وأحيا داخله الرضا والقناعة ، حماية لعرضه ، وحفظا لكرامته وعزته ، لأن المرء متى ما داخله الطمع علته المذلة والهون والصغار ، يقول :

أمت مطامعي فأرحت نفسي فإن النفس ما طمعت تهون
وأحييت القنوع وكان ميتا ففي إحيائه عرض مصون
إذا طمع يحل بقلب عبد علته مذلة وعلاه هون([36])

---

[33] - الديوان : ص 67 .
[34] - إبراهيم عبدالرحمن محمد : الشعر الجاهلى قضايا فنية وموضوعية ، ط/ مكتبة الشباب – القاهرة ، سنة 1979، ص 182-183 ، (منقول بتصرف) .
[35] - الديوان : ص 68-69 .
[36] - الديوان : ص 86 .

وليس أنجح وأحسن الوسائل فى علاج القلب وتطهيره من دنس هذه الأمراض من الترفع والتعالي عن سفاسف الأمور وصغائرها ، وعدم النزول إلى المهاترات والمشاحنات ، والانتقام والكيل بالمثل ، فإن ذلك مما يشعل النار ويزيدها إضراما ، لاسيما مع صغار الناس ، فاجعل العفو سبيلك لتقضى به على تلك العداوات ، ودفع الشر ، وداري عدوك بالسلام والبشر عند اللقاء ، فمعاملة الناس صعبة ، فقربهم داء عضال ، واعتزالهم قطع للمودة وصلة الرحم ، فلا سبيل إذن سوى الترفع عن توافه الأمور ، ومداراة الناس .

يقول الشاعر :

لما عفوت ولم أحقد على أحد أرحت نفسي من هم العداوات
إني أحيي عدوي عند رؤيته لأدفع الشر عني بالتحيات
وأظهر البشر للإنسان أبغضه كما إن قد حشى قلبي محبات
الناس داء وداء الناس قربهم وفي اعتزالهم قطع المودات([37])

ف" الشخصية السوية هي التي تتسم بالصفاء والمحبة والتسامح ، مؤمنة بأن التسامح هو أكبر مراتب القوة ، وأن حب الانتقام هو أول مظاهر الضعف " [(38)] ، وعلى غرار ذلك ومنه كان منهل شاعرنا ، وهو قائم على أوصاف طرائق الشفاء من تلك الأمراض ، فالتلطف مع الحاسد ، وملاينته ، وأن تتكرم عليه ، وتجعل الجود والسخاء ديدنك معه ، مما يقلع سخيمة الحقد من قلبه قلعا ، وينزع آثاره من نفسه نزعا ، على أن ذلك يتطلب قوة فى النفس، وصبرا فى العلاج ، وتدرجا للوصول إلى نتيجة فاعلة .

يقول :

أحسن إلى الأحرار تملك رقابهم فخير تجارات الكرام اكتسابها ([39])

ومن أمراض القلوب التي عرج عليها شاعرنا أيضا ، "الكبر" ، وهو من العلل القاتلة والآفات الضارة ، والأمراض النفسية الخطيرة ، التى حيرت جهابذة العلماء ، وأتعبت أصحاب علم النفس ([40]) ، فالمتكبر شخص صغير فى نفسه حقير داخلها ، يحاول أن يتطاول على الناس ليكمل نقصه ، وهو من الأمراض المنفرة التي تجعل الناس ينفرون من صاحبها ، كما يؤدى إلى الكذب والرياء والنفاق ، لذا بادر شاعرنا إلى تقديم العلاج ، مستندا فى ذلك على

---

[37] - الديوان : ص 30 .
[38] - د. محمود أحمد السيد : معجزة الإسلام التربوية ، ط/ دار البحوث – بيروت 1982 ، ص 82 .
[39] - الديوان : ص 22 .
[40] - د . إبراهيم محمد الجمل : الحسد وكيف نتقيه ، ط/ مكتبة القرآن – القاهرة ، ص 6 .

معين القرآن والسنة ، ثم على تجربته الذاتية التى هى خلاصة تجاربه الإنسانية فى الحياة ، حتى جاءت أبياته كسهام يطلقها من جعبته ، مصوبة نحو أهدافها مباشرة بكل دقة لتنفذ إلى القلوب . يقول :

ولا تمشين فى منكب الأرض فاخرا فعما قليل يحتويك ترابهـا
ومن يذق الدنيا فإني طعمتــها وسيق إلينا عذبها وعذابهـا
وما هي إلا جيفة مستحيــلة عليها كلاب همهن اجتذابهـا
فإن تجتنبها كنت سلما لأهلــها وإن تجتذبها نازعتك كلابهـا
فطوبى لنفس أولعت قعر دارهـا مغلقة الأبواب مرخى حجابها([41])

فعلى غرار القرآن فى النهى عن التكبر ينهى شاعرنا عن الاختيال والعجب بالنفس ، فإن الدنيا أحقر من ذلك ، ومن يتذوق حلاوتها فلا يغتر بها ، وليقارنها بالآخرة ليدرك أنها كجيفة نتنة عفنة تتجاذبها الكلاب ، –وهو تشبيه من الشاعر محقر ومنفر للدنيا ، يجعل النفس العاقلة تنفر منها –، فإن أنت صددت عنها تتجنب أهوالها ، وإن أنت دنوت منها كنت كالكلاب التى تتنازع الجيفة ، فطوبى لنفس أدركت حقارة الدنيا ، ولم تتكبر أو تختال ، وعاشت آمنة سالمة.

ويختم شاعرنا برأس هذه الأدواء كلها وأهمها ، وهو دعاء الله سبحانه وتعالى أن يكفى المرء حسد الحاسدين وكيد الكائدين وكبر المتكبرين ، وشر الأشرار ، يقول :

يا سميع الدعاء كن عند ظني واكفني من كفيته الشر منى ([42])

[41] - الديوان : ص 32 .
[42] - الديوان : ص 85 .

المحور التربوى الرابع : طبيعة الدهر والاستعداد لصروفه :

إن صاحب اليقين الراسخ فى القلب ، والعقل النابه الفطن ، من يجعل من وسائله فى الحياة التهيؤ لنوازل الدهر ونكباته ، ومعرفة سنة التبديل والتغيير فى الكون ، والمرء منا إذا أخذ نفسه بالحزم والعزم وهيأها لمجابهة النوائب ومصارعة النوازل ، يكون وقعها عليه وقت نزولها سهلا لينا ، فيتفاعل معها ويتعايش ، ويكون تبرمه منها تبرما لا يؤثر فى سير حياته ، أما الغافل غير المستعد لصروف الدهر ، والسادر فى غيه دوما ، فحين تفاجئه يكون وقعها عليه أليما ممضا ، وربما تعطل سير الحياة لديه ، ويتبرم منها تبرما يغضب الله عز وجل ، فتشل حركته ، وتفتر عزيمته .

والمرء بحاجة إلى معرفة الحياة معرفة جيدة ، وأن يدرك سر وجوده عليها ، حتى يأمن مكرها وخداعها ، وينظر للحياة نظرة موصولة بتقوى الله ليعيش وفق إرادته سبحانه ، سيدرك ساعتها جلية الأمر ولب الحقيقة الذى يكمن فى خداع الدنيا وسرابها.

واستنادا – كعادة الشاعر – على معين الدين الحنيف ، وتجاربه الذاتية ،يكشف عن حقيقية الدنيا وقد نهل من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :" من كانت الآخرة همه جعل الله

غناه فى قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن كانت الدنيا همه ، جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له " ([43])، معظم أبياته رحمه الله ، التى كان لها أثرها المباشر فى إثراء الفكر والوجدان الشعبى لمخاطبتهما المشاعر الدينية والروحية ، ومن ثم أثرت فى تجارب المتلقين وأفكارهم ، وأسهمت هذه المادة فى الموروث الثقافى للفرد بما يشكل رسوخا فى النفس تقاوم به نكبات الدهر ([44]) .

فالشاعر بداية يبين حقيقة الدهر وصفاته ، ويحذر منه ، ثم يقدم العلاج الأمثل لاتقاء شره ، فهو يرى أن خير ما يفعله الإنسان العاقل مع الدهر الحذرَ ، وألا يثق فيه أبدا ، أو يحسن به الظن ، لأن الدهر متى سالمه صاحبه ، ولم يخش عقباه ، يغتر بلياليه ، ويظن أنها تصفوا له ، فتفجؤه بنكباتها ونوازلها ، وقتئذ لا يجد أمامه سوى الندم والحسرة التى لا تفيد ، فنكبته لا تأتى إلا بعد صفو أيامه .

يقول :

تاه الأعيرج واستعلى به الخطر فقل له خير ما استعملته الحذر
أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر([45])

ومن سنة الحياة أن جُعِل الدهر متقلبا ، لا يثبت على حال أبدا ، وفى أحايين كثيرة يثير العجب والدهشة من فعاله مع الناس ، فقد ترى الأراذل والرويبضة منهم فى عيش هنئ ، ناعم ، يأكلون المن والسلوى – على حد قول الشاعر – ، وترى أشرافهم وأسيادهم وقد نكبهم الدهر بلا رحمة ولا شفقة ، تماما كالحمر التى تأكل ما تشتهى ، وتُعلف ما تهوى ، والأسود حتى من الماء لا تروى ، وأمثال ذلك فى حياتنا كثير، لكن من عرف صفة الدهر وتقلبه ، وأنه خائن لا أمان له ، تصبر ولم يظهر شكاية ، أو جزعا .

يقول الشاعر :

أرى حمرا ترعى وتعلف ما تهوى وأسدا جياعا تظمأ الدهر لا تروى
وأشراف قوم لا ينالون قوتهم وقوما لئاما تأكل المن والسلوى
فمن عرف الدهر الخؤون وصرفه تصبر البلوى ولم يظهر الشكوى ([46])

[43] - صحيح الجامع الصغير ، ج2 ، ح . رقم 6189 .
[44] - د. محمد عويس : الحكمة فى الشعر العربى فى الجاهلية والإسلام ، ط2/ المركز الثقافى – القاهرة ، سنة 1994 ، ص 150 .
[45] - الديوان : ص 44 .
[46] - الديوان : ص 91 .

فالأيام لا تستقيم على حال أبدا ، فيوم لك ، وآخر عليك ، ويوم أمن ، ويوم نكبة ، وعيش صفو ، وآخر كدر ، ولا يزال كذلك حتى تنتهي الدنيا ، فهذه طبيعته ، يتقلب فيها المرء ، حتى تنتهي أيامه .

يقول :

الدَّهْرُ يَوْمَانِ ذا أَمْنٌ وَذَا خَطَرُ وَالْعَيْشُ عَيْشَانِ ذَا صَفْوٌ وَذا كَدَرُ [47]

ولا زال حديث شاعرنا موصولا عن الدهر ، واصفا ومحذرا وآسفا عليه وعلى الذين يغترون به ، فنكبات الدهر عذاب وألم ، وتغير وتقلب ، لا نعتب فيه على أحد ، ولا نأسف فيه على شئ ، يقول :

تَبَيَّن زَمانَكَ ذا واقتصِد فإنَّ زمانَك هذا عَذاب

وأَقلِل عتابا فما فيه مَن يُعَاتَب حين يَحِقُ العتاب [48]

ومن صروف الدهر أيضا ومرارته ما تحويه الدنيا من أناس أراذل ، لا خلاق لهم ، ولا مروءة فيهم ، امتلأت نفوسهم غشا وكذبا ونفاقا وغلظة ، أحسنهم مروءة وأكثرهم أدبا ورقة ، من يسبك ويتسافه عليك ، فما بالك بالآخرين ؟ ، وهؤلاء لا بد أن تلاقيهم بالبشر والحسن والمودة ، اتقاء لهم ، واجتنابا لأفعالهم ، ومن يفعل ذلك فهذا من نعم الله عليه ، وإلا فاحتسب ذلك بلاء من الله واصبر عليه ، عسى أن يجنبكهم الله سبحانه .

يقول :

مضى الناسُ طُراً وبادوا سِوى أَراذِل عَنْهُم تَجِّلُ الكِلاب

يُلاقيكَ بالبشر دهماؤهم وتسليم من رَقَّ مِنهم سِباب

فأحسِن وما الحُرُّ مُسْتَحْسِن صِيانٌ لهُم عَنهُم واجتِناب

فإن يُغنِه الله عنهُم يفر وإلا فذاك البلاءُ العُجاب [49]

أيضا كثر فى الناس النفاق والتلون والمداهنة ،وهذا من شرور الدهر أيضا ، فمنهم من لا مبدأ له ولا عقيدة ، يميل حيث المنفعة والمصلحة ، ويصد عنك صدودا إذا مالت الريح عنك ، فهذا لا خير فيه ولا فى صحبته ، فهو يظهر لك أنه من أكرم الناس حينما يعلم عدم حاجتك للمال ، وعند الحاجة لا تجده ولا تجد ماله ، فهو البخيل بكل شئ ، يقول :

ولا خير في ود امرئٍ متلون إذا الريح مالت مال حيث تميل

جوادٌ إذا استغنيت عن أخذ ماله وعند احتمال الفقر عنك بخيل[50]

---

47 - الديوان : ص 45 .
48 - الديوان : ص 29 .
49 - الديوان : ص 31 .
50 - الديوان : ص 71 .

وبعد أن أبان شاعرنا عن صفات الدهر ، يبدأ فى وصف العلاج الناجع ، ويقدم النصح والإرشاد ، وهو الذي قد خبر الدنيا وحنكته الأيام ، واكتوى من نيرانها، ولا أنجع علاجا من الزهد فيها ، وتركها بحلوها ومرها ، وعذبها وعذابها ، لأن المتأمل العاقل فيها يدركها على حقيقتها ، وأنها لا تصلح لعاقل زاهد وطنا ، ثم يضرب الشاعر مثلا رائعا ، يشبه فيه الصالحين وقد اتخذوا من صالح أعمالهم سفينة يعبرون بها لجة الدنيا ، إنقاذا لهم من الغرق فيها ،وهى صورة خيالية دائما ما يكثر منها الشاعر، يقول :

إن لله عبادا فطنا تركوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحى وطنا
جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا ([51])

ومن نصائحه أيضا رحمه الله ، اغتنام الفرص فحينما تعتدل الدنيا معك ، وتقبل عليك ، لا تغتر بها ولا تفرح ، بل اغتنم تلك الفرصة ، وأكثر من فعل الخير والتصدق والإحسان إلى الناس ، فإنها ولا شك ستكشر عن أنيابها لك بعد ذلك ، فتكون أنت قد قدمت ما يحميك ويرضيك ، وقد صور الشاعر الدنيا بالريح التى تحمل الخير والغيث ، ثم تهدأ ويعقبها سكون ، فإن أنت لم تغتنم ذلك الخير سيكون الخسران ، يقول :

إذا هبت رياحك فاغتنمها فعقبى كل خافية سكون
ولا تغفل عن الإحسان فيها فلا تدرى السكون متى يكون ([52])

أيضا صن نفسك ، وعفها وارفع من شأنها ، واحملها على ما يجعلك نبيلا عزيزا فى أعين الناس ، مهما تنكر لك الدهر ، أو جفاك صديق لك ، فالناس كثير جدا ، لكنهم وقت الحاجة لا تجد منهم رجلا يؤازرك ، ويقف إلى جوارك فى مصابك ، يقول :

صن النفس واحملها على ما يزينها تعش سالماً والقول فيك جميلُ
ولاتزن الناس فيك إلا تجملا نبا بك دهرا أو جافاك خليل
فما أكثر الإخوان حين تعدهم ولكنهم في النائبات قليلُ([53])

[51] - الديوان : ص 85 .
[52] - الديوان : ص 87 .
[53] - الديوان : ص 71 .

وبهذه النظرة الثاقبة لحقيقة الحياة ، المدركة لواقع الناس ، يحدد شاعرنا هدفه ، ويقدم للناس درره ، وقد ألبسها ثوبا قشيبا ، فى أسلوب سهل ، ينفذ إلى القلب مباشرة ، وكثيرا – كما رأينا – ما يطلى كل ذلك ألوانا من الخيال الرائع والتشبيهات التى من شأنها أن تقرب الصورة للقارئ ،" فالصورة فى الشعر هى الشكل الفنى " (54) الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر فى سياق بياني خاص ، متكأ على إمكانات اللغة فى الدلالة والتركيب ووسائل التعبير الأخرى، حتى تؤدى الأبيات دورها المنوط بها، ولعل ذلك ما دفع د. مصطفى الشكعة أن يقول :" فإننا لا نكون غالين أو مبالغين إذا ما قررنا أن شعر الزهد عند الشافعي ربما كان خير شعره ، بل هو من خير ما أُثِر من شعر الزهد فى الأدب العربي " ([55]). ورحم الله شاعرنا .

الخاتمة

وبما تم طرحه سابقا ، نكون بحمد الله قد وصلنا إلى خاتمة البحث ، الذى انتهى إلى النتائج الآتية :

أولا : كان الشافعي شاعرا فصيحا بليغا ، قريب المعاني ، سهل الأسلوب ، وذلك بشهادة كبار العلماء ، كالأصمعي وغيره .

ثانيا : كانت مادة شعره فى هذه المحاور تعتمد على التأمل والتفكير بالدرجة الأولى ، مستندا على معين القرآن والسنة ،ثم على خبرته فى الحياة ،وتجاربه الذاتية فيها ،أما تجلياته الفنية ففى المقابلات والمفارقات ، التى تجعل من الكلام ما يشبه الأمثال السائرة ،التى يتداولها الناس فى حياتهم اليومية .

[54] - د . عبدا لقادر القط : الاتجاه الوجداني ، ص 435 .
[55] - د . مصطفى الشكعة : الإمام محمد بن إدريس ، ط/ دار الكتاب المصري – القاهرة 1984 م ، ص 97 .

ثالثا : الصور الفنية فى شعره اقتصرت – تقريبا – على الصور الجزئية فقط ، كالتشبيهات والاستعارات والكنايات ، التى من شأنها أن تنقل فكرته سهلة ومبسطة لقارئه.

رابعا : يسهم شعره فى بناء الفرد فى المجتمع المسلم ، لما يحويه من قيم وفضائل تعود بأثرها على الفرد ومجتمعه .

خامسا: كان شعره فى المحاور التى تناولها البحث يركز على معالجة النواحي النفسية لدى الفرد فتخلق لديه يقينًا راسخًا ، لذا فأبياته تمس شغاف القلب ، فتساهم بفاعلية فى التغلب على العديد من المشكلات النفسية وأمراض القلوب .

سادسا : تضمن شعره آراء ونظريات تربوية وتعليمية سباقة ، تتعلق بالإنسان من كل جوانبه المادية والروحية ، فى حياته وبعد مماته .

سابعا : على الرغم من كثرة المقطوعات الصغيرة فى شعره ،– وأن قليلا ما نصادف قصائد طويلة – والتى كانت تصل أحيانا إلى البيت أو البيتين ، بيد أنها جاءت مكتملة المعنى ووافية المضمون ، وتحمل أحيانا صورا فنية مكتملة الأركان .

المصادر والمراجع

– **إبراهيم عبد الرحمن محمد** : الشعر الجاهلي قضايا فنية وموضوعية ، ط/ مكتبة الشباب – القاهرة ، سنة 1979.

– **د.إبراهيم محمد الجمل** : الحسد وكيف نتقيه ، ط/ مكتبة القرآن – القاهرة.

– **أحمد تمام** : الشافعي ملامح وآثار ، ط/ دار الفكر – عمان .

– **الألباني** : صحيح الجامع الصغير وزياداته ، ط2/ المكتب الإسلامي – بيروت 1986 ، ج2.

– **حسن أيوب** : السلوك الاجتماعي ، ط/ دار البحوث العلمية – الكويت 1983.

– **ابن خلكان** : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : د. إحسان عباس ، ط/صادر – بيروت ، ج4.

- **الشـافعي** : الأم ، تصـحيح : محمـد زهـري النجـار ، ط/ دار المعرفـة والطباعـة والنشر – بيروت ، ج6.
- **الشـافعي** : ديـوان الشـافعي ، تحقيـق : محمـد عفيـف الزعبـى ،ط/ دار الجيـل – بيروت .
- **الشافعي** : الرسالة ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، ط/ القاهرة .
- **عبد الغنى الدقر** : الإمام الشافعي ، ط3/ دار القلم – دمشق 1987م .
- **د.عبـد القـادر القـط** : الاتجـاه الوجداني فـى الشـعر العربـي المعاصـر ، ط/ مكتبـة الشباب – القاهرة ، سنة 1978م.
- **د .عمر فروخ** : تاريخ الأدب العربـي ، ط3/ دار العلم للملايين – بيروت ، سنة 1980، ج2 .
- **ابن القيم** : الفوائد ، ط/ مطبعة البيان – دمشق ، سنة 1987 .
- **محمد الزين وأحمد القطان** : هارون الرشيد الخليفة المظلوم ، ط/ الكويت ، سنة 1988.
- **محمـد عـويس** : الحكمـة فـى الشـعر العربـي فـى الجاهليـة والإسـلام ،ط2 /المركز الثقافي– القاهرة ، سنة 1994 .
- **د . محمـود أحمـد السـيد** : معجزة الإسـلام التربويـة ، ط/ دار البحـوث – بيروت 1982.
- **د . مصـطفى الشـكعة** : الإمـام محمـد بـن إدريـس ، ط/ دار الكتـاب المصـري – القاهرة 1984م.
- **ياقوت الحموي** : معجم الأدباء ، ط/ دار المستشرق – بيروت ، ج 17.

الفهرس

	الموضوع	رقم الصفحة
	المقدمة	2
	المحور الأول : الرضا بالقضاء والقدر	5
	المحور الثاني : حتمية الرزق	11
	المحور الثالث : مداواة أمراض القلوب	15
		20

	المحور الرابع : طبيعة الدهر والاستعداد لصروفه	
	الخاتمة ونتائج البحث	24
	المصادر والمراجع	25
	الفهرس	27